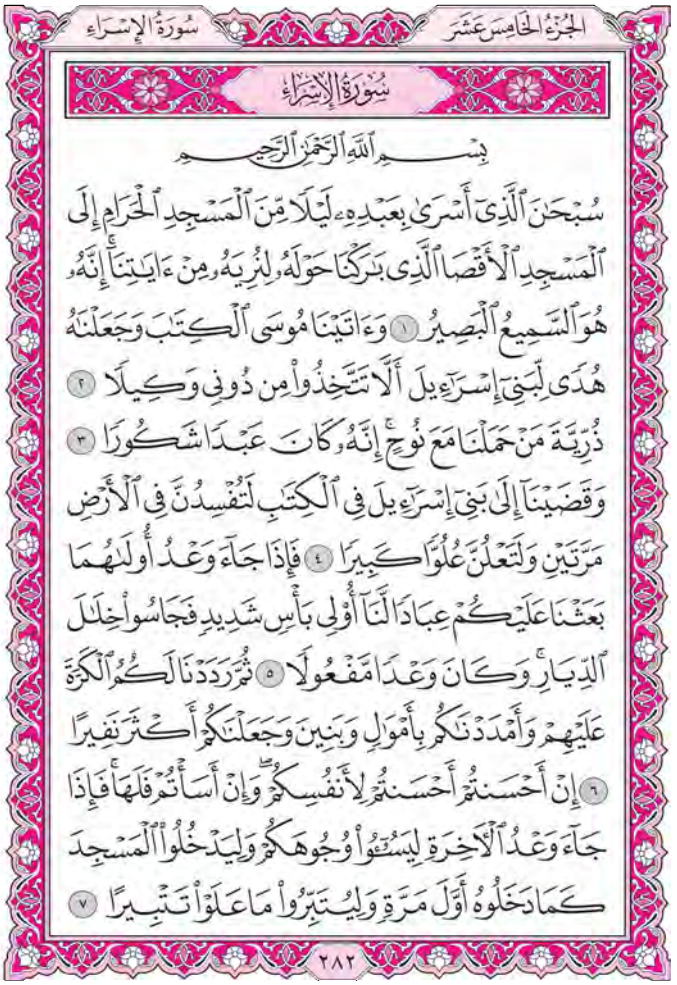

سورة الإسراء

سورة الإسراء مكيّة وآياتها إحدىٰ عشرة ومائة آية.

[١] بدأت السورة بتمجيد الله نفسه وتقديسها وتنزيهها؛ فهو أهل للثناء والمجد، ومن ذلك أنه شرَّف نبيه ﷺ برفعه إلىٰ العالم العلوي بروحه وجسده يقظة لا منامًا، وأكرمه بمواقف في الإسراء؛ مع أن مدة الإسراء كانت جزءًا من الليل، ثم أخبر سبحانه أنه أسرىٰ بعبده، وهذا إعلام بشرف العبودية لله، وتأكيد بأن الإسراء كان بالجسد والروح معًا، لأن العبد اسم للروح والجسد.

ثم إن الله جل وعلا أسرىٰ به ليلًا مع أن السري لا يكون إلا ليلًا ولكن لتأكيد السري، ونصب ﴿لَيْلًا﴾ وجعلها ظرفًا لتقليل مدة السري، وأنه جزء من الليل، وبين أن الإسراء بدأ من المسجد الحرام؛ حيث كان ﷺ في بيت أم هانئ عندما أسري به وهو في طرف من المسجد الحرام.

وأخبر سبحانه أن الجهة التي أسري إليها هي المسجد الأقصىٰ، وهو بيت المقدس الموجود في بلاد الشام في فلسطين، وسمي بالأقصىٰ لأن الرحلة إليه عندهم تستغرق قريبًا من الشهر؛ ولأنه لا مسجد بعده في علمهم.

وأخبر سبحانه أنه بارك في المسجد الأقصىٰ والبلاد التي حوله؛ فجعل أرض الشام كلها مباركة خِصْبة الأرض جيدة الثمار كثيرة الفواكه، وزاد بركاتها أنَّ جُلَّ أنبياء بني إسرائيل كانوا فيها، وعمت رحمته الجزيرة فبارك في الكعبة بمكة ومسجدها وحرمها.

وختم الآية مبينًا سبحانه أنه السميع لجميع الأصوات والأقوال، البصير بجمع الأعمال والأحوال، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

[٢] ثم أخبر سبحانه أنه أرسل موسىٰ بالتوراة التي جعل فيها الهدىٰ والنور لحياة بني إسرائيل وآخرتهم، وعهد إليهم فيها أن لا يعتمدوا ويتوكلوا إلّا عليه سبحانه.

[٣] واعلموا يا بني إسرائيل أنكم من ذرية أبي البشر الثاني نوح عليه السلام الذين آمنوا به فأنجاهم الله معه في السفينة، واعلموا أن نوحًا كان عبدًا كثير الشكر لله، فكونوا يا بني إسرائيل من الشاكرين لنعم الله اقتداءً بنوح أو إبراهيم عليهما السلام.

[٤] ثم أخبر سبحانه بني إسرائيل في التوراة خبرًا مؤكدًا بما سيكون منهم؛ حيث أخبر أنه لا بد أن يقع منهم إفساد في أرض الشام الأرض المقدسة مرتين، بارتكاب المعاصي وسفك الدماء والجور والظلم والاستكبار والبغي والعدوان، وليس هذا تكليفًا لهم، ولكنه إعلام لهم أنهم بطوعهم واختيارهم سيفعلون ذلك إفسادًا بعد إفسادٍ؛ وخروجًا علىٰ تعاليم التوراة؛ فالله علم بما كان وما يكون وليس شيء خارج عن إرادته الكونية والشرعية.

[٥] ثم قال سبحانه: فإذا وقع منكم يا بني إسرائيل الإفساد الأول سلطنا عليكم عبادًا لنا ذوي قوة وشجاعة وبطش في الحرب؛ فينتصرون عليكم، ويطوفون في دياركم قتلًا ونهبًا لأموالكم وسبيًا لأولادكم، وهذا وعد من الله لابد من وقوعه بسبب بغيكم وإفسادكم وظلمكم. وقوله سبحانه: ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾: هذه ليست إضافة تكريم؛ لأنهم كفار والكفار لا كرامة لهم، وإنما تفسيرها: أنهم عباد لله كسائر المخلوقات، أي: مملوكين لله كسائر مخلوقاته.

[٦] وبعد أن تاب بنو إسرائيل ورجعوا إلىٰ ربهم وأحسنوا أعمالهم واتبعوا رسلهم، أعاد الله لهم الغلبة والظهور علىٰ أعدائهم وأجلوهم من ديارهم، وكثَّر سبحانه أموالهم وأولادهم وقواهم وجعلهم أكثر عددًا من عدوهم، وتكونت لهم دولة سادت العالم علىٰ عهد داود وسليمان عليهما السلام.

[٧] واعلموا يا بني إسرائيل أن من يفعل الأعمال الصالحة فإن ثوابها ونفعها عائد له، وكذلك من يعمل الأعمال السيئة فإن ضررها عائد عليه؛ فإذا جاء موعد إفسادكم الثاني سلط الله عليكم أعداءكم وأعطاهم القوة ليتغلبوا عليكم حتىٰ تظهر آثار الذلة والهوان علىٰ وجوهكم من شدة ما تلقون من الإيذاء والقتل، ثم يدخلون المسجد الأقصىٰ فيعمرونه بالصلاة كما دخلوه أول مرة، ويدمرون ما أعليتم من مبانٍ شاهقة ومصانع وحصون وقلاع تدميرًا كاملًا.

يقول بعض المفسرين ومنهم الشعراوي: سيكون ذلك علىٰ يد المسلمين، كما قال تعالىٰ في آخر السورة: ﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء:١٠٤]، أي: يتجمعون في فلسطين من كل دولة كما هو الحاصل الآن.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ
الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾
وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾
وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾
وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ
النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ
السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ
إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا
يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ
عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ
مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

[٨] عسىٰ ربكم يا بني إسرائيل أن يعفو عنكم متىٰ تبتم وأخلصتم في أعمالكم وأقوالكم، أما إذا رجعتم إلىٰ الإفساد والظلم والمعاصي فإننا سوف نعود إلىٰ عقابكم بالقتل والتعذيب والإذلال وخراب الديار، واعلموا أن الله جل وعلا جعل جهنم للكافرين الجاحدين آياته سجنًا وفراشًا حاويًا لهم لا يستطيعون الهروب منه.

[٩] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن الذي نُزِّل علىٰ محمد ﷺ يرشد الناس إلىٰ أقوم الطرق والسبل الموصلة إلىٰ رضوانه، وهي ملة الإسلام؛ لاشتمالها علىٰ الإيمان وتوحيد الله، مضافًا إليه ما يوضحه وهو السنة النبوية، وهذا عام لكل البشر، أما بشارته لمن التزموا تعاليمه، وعملوا الأعمال الصالحة التي أمرهم الله بها؛ وانتهوا عما نهاهم الله عنه، فهي أنه أعد لهم ثوابًا كبيرًا عنده.

[١٠] وأخبر سبحانه أن الذين لم يصدقوا باليوم الآخر وما فيه من الجزاء والحساب؛ فإنه أعد لهم في نار جهنم عذابًا موجعًا شديدًا جزاء تكذيبهم.

[١١] يخبر جل وعلا أن الإنسان في بعض الأحيان عند الغضب والضجر يدعو علىٰ ولده أو نفسه بالشر، كما يدعو بالخير، ولو أنه سبحانه استجاب دعاءه لهلك وخسر خسرانًا كبيرًا، وكان الإنسان متسرعًا بالدعاء بالشر علىٰ نفسه أو غيره وخاصة الدعاء علىٰ الأولاد فخطرها عظيم ونتائجها وخيمة.

[١٢] يبين جل وعلا أن خلق الليل والنهار آيتان من آياته التي تدل علىٰ عظمته وقدرته، ومن حكمته أنه جعل الليل مظلمًا لسكون الناس وراحتهم، وجعل النهار مضيئًا ليسعىٰ الناس في مكاسبهم ومعايشهم، ولإنضاج الثمار ونحو ذلك، وليستدلوا من تعاقبها علىٰ معرفة السنين والحساب والأيام والشهور، ومعرفة ما يتعلق بالأوقات المحددة للديون والمواثيق وأوقات العبادات ونحو ذلك، وقد وضّح جلَّ وعلا كل شيء وفصّله تفصيلًا شافيًا كافيًا جليًّا لا خفاء فيه.

[١٣] يخبر جل وعلا أن من كمال عدله أنه يجازي كل إنسان علىٰ أعماله التي عملها في حياته الدنيا من خير أو شر، ولا يحاسب أحد بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله، أي: أن كل إنسان ملزم بأعماله التي عملها، وقد جعل الله عن يمين كل إنسان وشماله ملكين يكتبان عمله الحسن والسيئ، ثم إذا توفي طُمرت معه في القبر عند عنقه.

[١٤] ثم إذا خرج ذلك الإنسان للحساب أخرج الله معه هذه الصحف التي سجلت فيها أعماله وجُعلت أمامه مفتوحة، ثم يُؤمر أن يقرأ بنفسه ما فيها من أعمال الخير والشرّ؛ فيقرأ حتىٰ لو كان أميًّا؛ فإن الله يجعل له القدرة علىٰ ذلك؛ ليرىٰ ما عمل بنفسه، وهذا من أعظم العدل أن يقال للإنسان: حاسب نفسك بنفسك، كفىٰ بنفسك اليوم حسيبًا عليك.

[١٥] يخبر جل وعلا أن من اهتدىٰ إلىٰ الطريق المستقيم وعمل بما أمره الله ورسوله، فإن ثمرة ذلك راجع إليه وحده، وأن من ضل عن الطريق المستقيم واتبع هوىٰ نفسه، فإن عقاب ذلك راجع عليه وحده، واعلموا أن من عدل الله ورحمته بعباده أن كل نفس لا تحمل إلا وزرها، ولا يُسأل أحد إلا عمَّا ارتكب هو من الذنوب والمعاصي، ومن عدله أنه لا يعذب أحدًا من خلقه إلا إذا بلغته الرسالة، وأقيمت عليه الحجة فامتنع ورفض الحق.

[١٦] يخبر جل وعلا أنه إذا أراد أن يهلك قرية بسبب ذنوب أهلها وظلمهم؛ فإنه يأمر سادتها وأهلها بالتكاليف الشرعية؛ فإذا عصوه وخالفوا أمره واتبعوا أهواءهم، حق عليهم العذاب الذي لا مرد له؛ فكانت النتيجة أن الله دمرهم وأبادهم وأهلكهم جميعًا.

ومعلوم كيف يكون فعل المترفين في استباحة المحرمات وإعطاء أنفسهم كل ما تهواها.

[١٧] واعلم يانبي الله أننا أهلكنا كثيرًا من الأمم التي جاءت بعد زمن نوح عليه السلام كقوم عاد وثمود وغيرهم؛ بسبب رفضهم الهدىٰ والنور الذي جاء به أنبياؤهم، وكفىٰ بربك إحاطة واطلاعًا أنه عالم بكل أعمال عباده لا يخفىٰ عليه شيء مما عملوا؛ لأنه جل في علاه يعلم السر وأخفىٰ.

مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ
عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ
فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ
تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا
﴿٢٢﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا
يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ
أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى
صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۖ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ
فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ
وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

[١٨] يخبر جل وعلا أن من فضَّل الدنيا علىٰ الآخرة وجعل عمله فيها استثمارًا واستمتاعًا ومقدمًا علىٰ عمل الآخرة؛ يسَّر الله له ذلك، وأعطاه ما يريده وعلق ذلك بإرادته سبحانه إذ لا شيء يخرج عنها، ثم يجعل له سبحانه في الآخرة جهنم يدخلها ويذوق حرَّها ولهيبها، مطرودًا ومبعدًا من رحمة الله.

[١٩] ثم أخبر أن من فضَّل الآخرة علىٰ الدنيا وعمل لها الأعمال الصالحة التي توصله إلىٰ رضوان الله، وهو مؤمن بالله ومصدق برسله، ومؤمن بثواب الله العظيم، فأولئك كان عملهم للآخرة عملًا مقبولًا وسعيهم سعيًا مشكورًا، يجزون عليه بما يستحقون من الثواب الجزيل عند رب العالمين.

[٢٠] ومن حكمته جل وعلا أن أولئك الفريقين الذَيْن عمل أحدهما للدنيا والثاني عمل للآخرة سوف يرزقهم ربهم علىٰ حد سواء؛ فإنه سبحانه يرزق المؤمنين والكافرين في الدنيا، أما في الآخرة فكلٌ يأخذ جزاءه بحسب عمله؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر. واعلم يانبي الله أن عطاء ربك لم يكن ممنوعًا من أحد مؤمنًا كان أو كافرًا؛ لأنه خلق الجميع وتكفل بأرزاقهم، ثم في الآخرة يستحق كل فريق نتيجة عمله.

[٢١] انظر يانبي الله كيف فضل جل وعلا بعض الناس علىٰ بعض في الدنيا، في الرزق والعمل، فهذا غني وهذا فقير، وهذا قوي وهذا ضعيف ونحو ذلك، أما في الآخرة فإن الناس يتفاوتون أكبر من تفاوتهم في الدنيا، ويتفاضلون تفاضلًا أكبر؛ فالمؤمنون جعلهم الله في الجنة درجات، يتفاضلون فيها بحسب أعمالهم، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والكفار جعلهم الله في النار دركات، يتفاوتون فيها بحسب شقاوتهم وظلمهم وكفرهم.

[٢٢] يحذر جل وعلا عباده أن يجعل أحدهم مع الله شريكًا له في عبادته، فيكون مذمومًا من الله ومن أوليائه المؤمنين، ويكون مخذولًا فلا يجد من يعينه أو ينصره في الآخرة، وهذا من أعظم الذل والخسران.

[٢٣] بعد أن حرّم الله علىٰ عباده الشرك أمرهم بأن يفردوه وحده بالعبادة، ثم أوصىٰ الأبناء ببر الوالدين والإحسان إليهما، وإذا بلغ أحد الوالدين أو كلاهما سن الشيخوخة فيجب علىٰ الابن خدمتهما، ولا يؤذيهما بأقل وأدنىٰ أذية، ولو بكلمة أف، ولا يجرح مشاعرهما إذا طلبا شيئًا ليس عند ابنهما، وعليه أن يقول لهما قولًا لطيفًا، وأن يعدهما خيرًا بأن يشعرهما أنه سوف يحضر طلباتهما إذا تيسر.

قال الشيخ الشعراوي: يربط الله غالبًا بر الوالدين بعبادته؛ لأن الوالدين السبب الثاني لوجود الإنسان، والله هو السبب الأول؛ فمن لم يُقدِّر السبب الثاني جدير بأن لا يُقدِّر السبب الأول، وقد صدق رحمه الله.

[٢٤] وعليك أيها الإنسان أن تتواضع لوالديك وتلطف بهما، ولا ترفض لهما طلبًا في المعروف، وأن تدعو لهما بالرحمة والمغفرة أحياءً وأمواتًا؛ جزاء ما بذلا من جهد في رعايتك والعناية بك يوم أن كنت ضعيفًا محتاجًا لرعايتهما وحنانهما.

[٢٥] واعلموا أيها الناس أن الله يعلم بما تنطوي عليه نفوسكم وضمائركم من خير أو شر؛ سواءً كنتم تضمرون البر بآبائكم، أم كنتم تخفون الإساءة إليهما، ومع ذلك فإن كان مقصدكم في برهما هو مرضاة الله وما يقربكم منه، فإنه سبحانه كان للتائبين من تفريطهم في حق والديهم أو في حق غيرهم غفورًا، وأنه يعفو عمّا يصدر منكم مما هو من مقتضىٰ الطبائع البشرية.

[٢٦] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يؤدي حقوق القرابة كالبر والصلة والإحسان، وأن يعطيهم شفقة وإحسانًا وتكرمًا، ويدخل في أمره كل أمته، وهذا في الصدقة العامة، أما الزكاة فهي حق واجب عليه وعلىٰ كل من تجب عليه الزكاة من أمته، أما بالنسبة للوالدين فإذا كانا فقراء فيجب أن ينفق عليهما ولا يجوز اعطاؤهما من الزكاة، ثم أمره أن يعطي المسكين العاجز عن الكسب ما يحتاج إليه من المال والغذاء والكلمة الطيبة، ويعطي ابن السبيل الذي انقطعت به الطريق ما يبلغه طريقه إذا احتاج إلىٰ ذلك، ثم ذكر قاعدة اقتصادية ما التزم بها شخص فشكىٰ الفقر أبدًا، وهي: نهيه عن التبذير، وهو إنفاق المال علىٰ وجه الإسراف والتبذير في غير طاعة الله وفي غير فائدة، وعلىٰ العبد أن يلزم الوسط والعدل في الإنفاق وغيره.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن المبذرين إخوان للشياطين؛ لأنهم بتبذيرهم يشبهون الشيطان في صفاته القبيحة؛ لأن الشيطان كثير الكفران والجحود لنعم الله.

وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا
كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟
أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ
خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ
وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى
هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ
ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ
ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾
وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

[٢٨] ثم بين جل وعلا ما يجب علىٰ الرسول ﷺ فعله في حال عدم قدرته علىٰ مساعدة ذوي القربىٰ والمسكين وابن السبيل الذين أُمره الله بمساعدتهم؛ لأن طلبهم غير متوفر، أو كان هناك مبررٌ لحجبه عنهم، فقل لهم قولًا لطيفًا لا يُشعرهم ببخل منك أو عدم اهتمام، وأشعرهم أنك سوف تحضر لهم طلبهم إذا تيسر ذلك.

[٢٩] ثم أمر سبحانه بأن لا يكن الإنسان بخيلًا ممسكًا للمال، ويمتنع عن الإنفاق في سبيل الخير؛ كمن يده مشدودة إلىٰ عنقه لا يستطيع أن ينفق، ولا يسرف في الإنفاق والبذل والعطاء ويتوسع في ذلك، فإنك بالبخل تكون مذمومًا ويلومك الله والناس، وبالإسراف سوف تفتقر ثم تتحسر وتندم علىٰ إسراف المال وإضاعته.

[٣٠] واعلموا أيها الناس أن الله يوسع رزقه لمن يشاء من عباده، ويمسكه ويضيقه ويقدره علىٰ من يشاء من خلقه، وأنه يعطي كل إنسان ما يتحمل وفْقَ علمه وحكمته، إنه جل وعلا لطيف بعباده، وخبير ببواطنهم وبظواهرهم وطبائعهم، وإنه عليم بأحوالهم، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

[٣١] يحذر جل وعلا عباده من أن يقتلوا أولادهم بعد ولادتهم خشية العار أو الفقر، ثم بين سبحانه أنه تكفل برزق الجميع الآباء والأبناء، ثم بين أن قتلهم لأبنائهم خطأ كبير وإثم عظيم وجريمة منكرة، تؤدي إلىٰ الشقاء والخسران في الدنيا والآخرة.

[٣٢] ثم نهىٰ جل وعلا عباده عن الاقتراب من الزنا، أي: البعد عن المقدمات التي تفضي إلىٰ الوقوع في هذه الفاحشة الكبيرة والعظيمة، كالخلوة بالنساء والاختلاط بهن والنظر إليهن ونحو ذلك، ثم بين سبحانه أن الزنا فاحشة؛ وأن طريقه طريقٌ سيِّيء يؤدي إلىٰ غضب الله، وإلىٰ إشاعة الفساد والأمراض الخبيثة في الأفراد والمجتمعات، كما أنه يؤدي إلىٰ اختلاط الأنساب.

[٣٣] ثم نهىٰ جل وعلا عن قتل النفس المعصومة إلا إذا ارتكبت ما يوجب قتلها، ولا شك أن قتل النفس المعصومة من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، واعلموا أن من قتل مظلومًا فإن أولياءه حجتهم بالغة وهم مؤيدون من الله، ولهم أن يثأروا للمقتول، إما بالقصاص أو الدية أو العفو، ولا يصح للولي أن يتجاوز الحد الشرعي في القصاص، بأن يقتل بالواحد اثنين، أو أن يُمثِّل بالقاتل ونحو ذلك، ثم اعلموا أن الله معين لولي المقتول علىٰ القاتل حتىٰ يتمكن من إقامة الحد عليه، أو أخذ الدية منه.

[٣٤] يأمر جل وعلا عباده بعدم الاقتراب من مال اليتيم، والنهي عن المقاربة تحذير بليغ فما بالك بالمباشرة، ثم بين سبحانه أنه لا مانع من التجارة في ماله بأحسن الطرق التي لا تعرضه للأخطار، وأنه لا مانع من الإنفاق عليه بغير إسراف، ويستمر ذلك حتىٰ بلوغه وظهور علامات العقل والرشد عليه، وعندها يجب علىٰ الولي أن يسلمه ماله كاملًا ويشهد علىٰ ذلك شهودًا، ثم أمر الله بالوفاء بالعهود، وهذا يشمل الوفاء بالعهود التي بين العبد وبين الله، والوفاء بالعهود التي بين العبد وبين الناس، واعلموا أنكم مسئولون أمام الله عن الوفاء بالعهود؛ فمن أوفىٰ بالعهد نال الأجر والثواب العظيم، ومن لم يوفِ نال الإثم العظيم.

[٣٥] ثم أمر جل وعلا عباده بإتمام الكيل عند البيع والشراء، وأن يزنوا بالميزان السوي دون زيادة أو نقصان، وبيَّن أن إيفاء الكيل والوزن فيه خير لكم من البركة والنماء، وهو الأفضل والأحسن عند عامة الناس في الدنيا وعند الله في الآخرة.

[٣٦] يحذر جل وعلا عبادة من تتبع ما ليس لهم به علم ولا يعنيهم، بل يجب التأكد والتثبت؛ وأن الإنسان مسؤول عمّا يقترفه بجوارحه، فإن استعمل جوارحه في الخير نال الأجر والثواب، وإن استعملها في الشر نال العقاب والعذاب.

[٣٧] ثم حذر جل علا عباده من أن يمشي أحدهم مشية المتكبر المختال، وفي هذا تهكم وسخرية بالمبطرين المتكبرين علىٰ الناس، واعلم أيها الإنسان أنك لن تبلغك نفسك وقدرتك بأن تخرق الأرض، ولن تبلغ الجبال في الطول والعلو مهما تكبرت وتعاليت.

[٣٨] واعلموا أيها الناس أن كل ما تقدم من أوامر ونواهٍ يكره الله سيِّئها ويأباها ويبغضها، كما أنه مكروه ومبغض عند الناس، أما الأوامر والأفعال الحسنة كالوفاء بالعهد وغيره فإن الله يحبها ويرضاها لعباده، كما أن الناس يحبونها ويحمدونها.

ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا
ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم
بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ٤٠
وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ٤١
قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا
٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ وَإِذَا قَرَأۡتَ
ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا
مَّسۡتُورٗا ٤٥ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ
وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦
نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ
إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧ ٱنظُرۡ
كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨
وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ٤٩

[٣٩] واعلم يانبي الله أن التكاليف السابقة من الحِكَم والهُدىٰ هي مما أوحاه الله إليك فاحذر من الوقوع فيها، ولا شك أنه ﷺ معصوم من ذلك ولكن المقصود هو تحذير أمته منها، فيا أيها الإنسان احذر أشد الحذر أن تجعل مع الله شريكًا له في العبادة، فإن فعلت فسيكون مصيرك أن تلقىٰ في نار جهنم ثم تلومك نفسك ويلومك الناس، وتكون مطرودًا مبعدًا من رحمه الله؛ لأن الشرك محبط للأعمال.

[٤٠] ثم خاطب جل شأنه المشركين فقال: هل خصَّكم أيها المشركون الله بالصفوة من الذرية؟ فجعل لكم الأولاد الذكور، وجعل لنفسه بناتًا وهم الملائكة؟ يعني: فضلكم علىٰ نفسه؛ إنكم لتقولون علىٰ الله قولًا قبيحًا وشنيعًا لا يليق به سبحانه وتعالىٰ.

ومقصود المولىٰ جل وعلا: انتقادهم وإشعارهم أنهم ما قدسوا الله ولا قدروه حق قدره؛ فهو سبحانه الغني عن الولد وعن البنت؛ فالكل عبيده.

[٤١] يخبر جل علا أنه نوَّع في هذا القرآن فاشتمل علىٰ آيات الأحكام والأمثال والمواعظ والقصص والأخبار والوعد والوعيد؛ وكرر المواعظ ليتعظ الناس ويتدبروا معانيه ويكون حجة عليهم، ولكن مع ذلك ازداد الظالمون بعدًا ونفورًا وهروبًا عن الهدىٰ والخير والحق.

[٤٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: لو كان مع الله آلهة أخرىٰ غيره كما تزعمون؛ لاتخذت هذه الآلهة طريقًا إلىٰ محاربة الله والاستيلاء علىٰ بعض ملكه.

[٤٣] ولكنه جل في علاه واحد أحد لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وتنزّه جل شأنه وتقدّس عمّا يقول ويزعم هؤلاء المشركون الضالون، وعلا جل في علاه علىٰ خلقه علوًّا عظيمًا يليق بجلاله وعظمته.

[٤٤] يخبر جل وعلا أن السماوات والأرض وما فيها من المخلوقات؛ يسبح الله وينزهه ويقدسه ويثني عليه ويحمده ويمجده، ولكنكم أيها الناس لا تفقهون تسبيحهم بسبب اختلافكم في التكوين الخَلْقِي وفي اللغات، واعلموا أن الله سبحانه حليم بعباده لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، وأنه كثير المغفرة يغفر ذنوب وزلات من عاد إليه وأناب، واستغفر ربه وتاب.

[٤٥] يخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ بأنه إذا قرأ القرآن علىٰ الكفار الذين لم يؤمنوا باليوم الآخر، وحاربوا الدعوة؛ فإن الله جعل بينه وبينهم غطاءً ساترًا يستر عقولهم عن فهم القرآن، وذلك عقابًا لهم علىٰ كفرهم وجحودهم وإنكارهم لدين الله. ولْيُعلم أن هذا الحجاب والغطاء أو الختم في هذه الآية وما ورد مثله في كتاب الله لم يكن ابتداءً منه جل وعلا، وإنما حصل ذلك جزاءً لهم لمحاربة الدعوة وصدّ غيرهم عن الهدىٰ ونفورهم عنه، ولم يكن هذا الحجاب خاصًّا بكفار مكة الذين تنزلت فيهم، ولكنه عام لكل من سلك مسلكهم وحارب الإسلام والدعاة في كل زمان ومكان.

ومعلوم أنه لا يهتدي للحق إلا من رغب فيه والْتمسه وتشوق إليه، أما من إذا عُرض عليه نفر وهرب فهذا هو المستحق للعقوبة والطبع والختم علىٰ قلبه.

[٤٦] وجعلنا علىٰ قلوب هؤلاء الكفار أغطية وأغشية لا يفهمون معها القرآن، وجعلنا في آذانهم صممًا لكي لا يسمعوه؛ كل ذلك عقوبة لهم علىٰ كفرهم وجحودهم وإنكارهم لدين الله ومحاربتهم للدين والدعوة، واعلم يارسول الله بأنك إذا ذكرت ربك في القرآن وحده غير مقرون به آلهتهم، ودعوت قومك لتوحيد الله وإفراده بالعبودية، ونهيتهم عن الشرك به، ولَّوا علىٰ أدبارهم نفورًا من قولك، وكرهًا لما جئت به، وعنادًا واستكبارًا.

[٤٧] واعلم يا نبي الله أننا نعلم مقاصد المشركين السيئة؛ حيث يستمعون إليك وهدفهم التقاط شيء يأخذونه للطعن فيك وفي القرآن، ونعلم بما يتناجون به بينهم؛ حيث يقولون لبعضهم البعض: إنكم تتبعون رجلًا أصابه السحر فتغير عقله بسببه.

[٤٨] تفكر وتأمل يانبي الله كيف بلغ الجحود والضلال بهؤلاء المشركين؛ حيث إنهم وصفوك بأشنع الأوصاف، فقالوا: إنك ساحر وشاعر ومجنون وغير ذلك، فاعلم أنهم بهذه الأوصاف لك قد ضلوا عن الحق ضلالًا بعيدًا، ولهذا فإنهم لا يهتدون إلىٰ طريق الحق والصواب والهدىٰ؛ بل إنهم بهذا حرموا أنفسهم الهدىٰ.

[٤٩] يخبر جل وعلا عن قول المشركين المنكرين للبعث الذين يقولون استنكارًا وتكذيبًا: فإذا بَلِيَتْ يامحمد أجسامنا وتحلّلت إلىٰ تراب ورفات، أئنا لمبعوثون خلقًا جديدًا؟ فتعود لنا الحياة مرة أخرىٰ.

* قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى
صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ
فَسَيُنغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ
إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ
إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا
مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ
يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ
بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن
دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ
وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ
مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

[٥٠] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل إعلامهم بعظمة قدرة الله: اعلموا أيها المشركون لو تحجرت أجسامكم أو تحولت إلىٰ حديد لكان الله قادرًا علىٰ إعادتها وإحيائها كما كان قادرًا علىٰ إحيائها وإماتتها.

[٥١] وقل لهم يا نبي الله أيضًا: وكذلك لو تخيلتم أن تكونوا خلقًا آخر أعظم من الحجارة والحديد؛ فاعلموا أن الله قادر علىٰ إعادته وبعثه من جديد، وعند سماعهم هذه الإجابة سيقولون لك: فمن يردنا إلىٰ الحياة بعد الموت؟، فقل لهم: الذي خلقكم وأنشأكم أول مرة من العدم، عندها سوف يحركون رؤوسهم استهزاءً وتعجبًا، ويقولون مستبعدين وقوعه: متىٰ يكون هذا البعث؟ فقل لهم: احذروا فإنه آتيكم قريبًا.

[٥٢] واذكروا أيها المنكرون للبعث يوم أن يناديكم ربكم للبعث والنشور فتلبون نداءه بسرعة حامدين الله ومنقادين إليه، ولهول الموقف في ذلك اليوم يوم القيامة؛ فإنكم تظنون عند بعثكم أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمنا قليلًا.

[٥٣] يأمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يرشد المؤمنين أن يستعملوا في مناقشاتهم ومحادثاتهم لعموم الناس الألفاظ الحسنة والطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن الشيطان سوف يلقي بنهم العداوة والفساد والبغضاء والخصام، لأن الشيطان عدو للإنسان عداوة ظاهرة.

[٥٤] واعلموا أيها الناس أن ربكم أعلم بكم من أنفسكم، إن يشأ يرحمكم بفضله فيوفقكم للإيمان والطاعة، أو إن يشأ يعذبكم بعدله فيميتكم علىٰ ضلالكم وكفركم، واعلم يارسول الله بأننا ما أرسلناك عليهم رقيبًا؛ وليس لك الحق في أن تلزمهم بالإيمان والإسلام؛ بل أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، ومبلغًا ما أرسلت به، وفي هذا بيان لوظيفة الرسول ﷺ.

[٥٥] واعلم يانبي الله أن ربك أعلم بأحوال من في السماوات والأرض، وفضل سبحانه بعض النبيين علىٰ بعض، فاتخذ إبراهيم خليلًا، وكلم موسىٰ تكليمًا، وأعطىٰ سليمان مُلكًا عظيمًا، وأعطىٰ محمدًا ﷺ فضائل كثيرة، منها: رفعه إلىٰ السماوات العلىٰ وتكليمه في فرض الصلوات، وغفران الذنوب ما تقدم منها وما تأخر، وأعطىٰ داود الزبور، وهي التي تسمىٰ مزامير داود.

[٥٦] وقل يانبي الله للمشركين أن يطلبوا من هذه الآلهة التي عبدوها من دون الله أن تلبي طلباتهم، فإنها لا تستطيع أن تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم خيرًا، ولا تقدر علىٰ تحويل الضر عنهم إلىٰ غيرهم، فإن القادر علىٰ ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر.

[٥٧] واعلموا أيها المشركون أن معبوداتكم التي زعمتم من دون الله؛ سواء كانوا من الأنبياء مثل عيسىٰ عليه السلام أو من الصالحين والأولياء، فإنهم يتنافسون في التقرب إلىٰ الله بما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، وفوق ذلك يسألون رحمه الله ويخافون عذابه، لأن عذاب الله عظيم تخافه وتحذره الملائكة والمرسلون وجميع العباد؛ فالجميع يرهبه ويسأل الله السلامة والعافية منه.

[٥٨] يخبر جل وعلا أن كل قرية كافرة ظالمة مكذبة للرسل سوف تدمر وتهلك قبل يوم القيامة، أو يصيب أهلها عذاب شديد، واعلموا أن هذا التدمير أو العذاب قد قضاه الله ولابد من وقوعه؛ لأنه مسجل في اللوح المحفوظ.

وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩ وَإِذۡ قُلۡنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلرُّءۡيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيۡنَٰكَ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَانٗا كَبِيرٗا ٦٠ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٢ قَالَ ٱذۡهَبۡ فَمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمۡ جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا ٦٣ وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ وَعِدۡهُمۡۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ٦٤ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٞۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا ٦٥ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزۡجِي لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِي ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦

[٥٩] ثم أخبر جل وعلا أن الذي كان سببا في عدم إنزال المعجزات التي سألها المشركون هو تكذيب من سبقهم من الأمم، فقد سألوها ثم كذبوا بها فاستحقوا العذاب واستؤصلوا وأهلكوا، ومن هؤلاء قوم صالح فقد أرسلنا إليهم الناقة فكفروا بها فأهلكناهم، ونحن نعلم أنهم ما طلبوا الآيات ليؤمنوا بها ولكن تعجيزًا وسخرية، فلو حققنا لك طلبهم ثم لم يؤمنوا فحينئذ يستحقون القضاء عليهم، واعلم يا نبي الله أن الله أرسل الرسل مؤيدين بالمعجزات لحث العباد لعلهم يعتبرون ويتذكرون.

[٦٠] واذكر يانبي الله يوم أن أوحىٰ الله إليك بأن جميع أمور الناس بيده وتحت تصرفه بما فيهم أهل مكة وسوف يظهرك الله عليهم، وما جعلنا ما رأيته وأبصرته بعينك ليلة الإسراء والمعراج حين أسري بجسدك إلا ابتلاءً وفتنة للناس؛ حيث زلزلت الإيمان في قلوب المؤمنين فارتد بعضهم وأما الكفار فزادتهم ضلالًا إلىٰ ضلالهم، وكذلك ما جعلنا شجرة الزقوم الملعونة التي تخرج في أصل الحميم، والتي جاء ذكرها في القرآن وسخر منها أبو جهل وغيره؛ إلا ابتلاءً وفتنة للناس، ونخوف هؤلاء المشركين بهذه الآيات وبأنواع العذاب، علَّهم يؤمنون ويهتدون، ولكنهم يزدادون تماديًا وطغيانًا وضلالًا وكفرًا.

[٦١] واذكر يا رسول الله يوم أن أمرنا الملائكة بالسجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، فامتثلوا أمر الله تعالىٰ وسجدوا إلا إبليس فلم يسجد تكبرًا وعنادًا، وقال مستكبرًا: إن حجته أنه أفضل من آدم؛ لأن آدم خُلق من طين وهو خُلق من نار. وقد سبق التعليق علىٰ هذه الآية في سورة البقرة وقلنا: إن إبليس لم يكن من الملائكة، وأن الله أمره بالسجود بأمر خاص به، كما قال تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ [الأعراف:١٢].

[٦٢] قال إبليس رادًّا علىٰ الله بكل جرأة: أرأيت هذا المخلوق الضعيف الذي فضلته عليَّ الذي هو آدم؟ لئن أبقيتني يارب حيًّا إلىٰ يوم القيامة لأغوينَّ ذريته وأقودها إلىٰ الذنوب والمعاصي والشهوات؛ إلا البعض القليل ممن اصطفيت من عبادك فإني لا أستطيع أن أغويهم؛ لقوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

وقد طلب إبليس البقاء إلىٰ يوم القيامة، فأجاب الله طلبه لكن إلىٰ اليوم الموعود، وهو طلوع الشمس من مغربها.

[٦٣] ولحكمة الله العظيمة التي خلق الله من أجلها الجنة والنار، رد جل وعلا علىٰ إبليس مهددًا له ولأتباعه: اذهب مطرودًا ملعونًا، فقد أخرناك إلىٰ يوم انتهاء الدنيا فافعل ما تريد؛ فإن النار ستكون جزاءً مكمَّلًا متمَّمًا لا نقص فيه لك ومن تبعك منهم في العصيان.

[٦٤] ثم إن الله جل وعلا للحكمة الآنفة الذكر قال لإبليس: اذهب وافعل ما شئت معهم من الاستفزاز والاستخفاف وادعهم إلىٰ المعاصي، وسلط عليهم من استطعت من جنودك من الإنس والجن، وشجعهم علىٰ جمع المال من الطرق المحرمة كالربا والسرقة والغش والرشوة، وحثهم علىٰ تربية أولادهم علىٰ الفساد بأن تيسر لهم الوقوع في الزنا الذي يترتب عليه ضياع الأنساب، وسهل لهم تسمية أولادهم بأسماء يبغضها الله كأن يسموا عبداللات وعبدالعزىٰ ونحو ذلك، وزين لهم كل أنواع الباطل والفجور والفساد، كالقتل بغير حق ووأد البنات وغير ذلك، وعد أتباعك بما شئت من الوعود الكاذبة الخادعة الباطلة كأن تقنعهم بأنه لا يوجد جنة أو نار وأنه لا حياة آخرة، وأنه لا حساب ولا عذاب بعد الموت، وفي هذه الآية تحذير من الله لعباده بأن لا يتبعوا الشيطان وأن لا يغتروا بحيله وخدعه.

[٦٥] ولكن اعلم يا إبليس بأن مكايدك ووساوسك وحيلك لن تنطلي علىٰ عباد الله المؤمنين المخلصين المتوكلين علىٰ الله؛ الذين أطاعوا الله فاتبعوا أوامره واجتنبوا نواهيه، وكفىٰ بربك يانبي الله حافظًا ومؤيدًا ونصيرًا لعباده المؤمنين من كيد الشيطان ووساوسه وغروره.

[٦٦] واعلموا أيها الناس أن ربكم هو الذي يسوق السفن التي تركبونها في البحر بقدرته وعلمه، لتطلبوا رزق الله؛ حيث تحملكم وتحمل بضائعكم؛ سواء للتجارة أو غيرها، إنه جل وعلا كان رحيمًا لطيفًا خبيرًا بمصالح عباده.

وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا
نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ
أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ
لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً
أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ
ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ
ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟
كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ
فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن
كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ
عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ
لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ
ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

[٦٧] يخبر جل وعلا أن الناس إذا أصابتهم شدة وَهُمْ في البحر بأن ارتفعت الأمواج وخافوا من الغرق والهلاك لجأوا إلىٰ الله الإله الحق، وصرفوا النظر عن الآلهة المزعومة، فلمّا نجّاهم ووصلوا إلىٰ البر سالمين آمنين رجعوا إلىٰ الضلال ونسبوا النجاة إلىٰ براعة ربان السفينة، وعادوا إلىٰ عبادة غير الله؛ سواء كان صنمًا أو ملكًا أو بشرًا، وأعرضوا عن الإيمان والإخلاص لله الذي نجَّاهم، وكان الإنسان كثير الكفران والجحود لنعم الله تعالىٰ.

[٦٨] ثم بين جل وعلا أن الذي نجّاهم في البحر قادر أن يخسف بهم الأرض، والخسف هو انهيار الأرض بما عليها من سكان، فهل أمنوا القادر علىٰ إهلاكهم في البر كما كان قادرًا علىٰ ذلك في البحر؟، أم أمنوا أن يرسل عليهم ريحًا شديدةً تحمل الحصباء والحجارة والتراب فتهلكهم؟، ثم لا يجدوا نصيرًا يلتجئون إليه فينصرهم ويحميهم من عقاب الله.

[٦٩] ثم قال سبحانه: أم أمنتم أيها الناس أن يعيدكم الله في البحر مرة ثانية بأن يهيئ الأسباب لعودتكم إلىٰ ركوبه؟، ثم يرسل عليكم ريحًا شديدة مهلكة تحطم سفنكم وتكسِّر كل ما أتت عليه فتغرقكم بسبب كفركم وضلالكم وعنادكم، ثم لا تجدون من يطالب بحقكم ولا يأخذ بثأركم، فإن الله لم يظلمكم؛ بل أنتم الذين ظلمتم أنفسكم.

[٧٠] يخبر جل وعلا أنه كرم بني آدم، فخلق أباهم آدم بيده، وسخر لهم جميع ما في السماوات والأرض، وخلقهم في أحسن تقويم، وميزهم بالعقل عن باقي المخلوقات، واستخلفهم في الأرض ابتلاءً لينفذوا تعاليمه وليعمروها، وجعل منهم رسله وأنبياءه وأولياءه، ثم بين سبحانه بأنه سخر لهم المركوبات التي تحملهم في البر والبحر، وأنه رزقهم من أنواع الطيبات من المطاعم المشارب التي يستلذون بها، وأنه فضلهم علىٰ كثير من الخلوقات التي لا يحصيها إلا الله عز وجل بأمور كثيرة، وصدق الله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

[٧١] واذكر يانبي الله يوم القيامة حين يدعو الله عز وجل كل أمة بكتابهم الذي جاء لهم به رسولهم، ثم تعرض أعمالهم علىٰ كتابهم المنزل علىٰ رسولهم، فأهل القرآن تعرض أعمالهم علىٰ القرآن، وهكذا أهل التوراة والإنجيل وغيرهم، فمن كانت أعماله موافقة لكتابهم المنزل عليهم فإنه يعطىٰ كتابه بيمينه الذي يفرح به ويقرأه ببهجة وسرور؛ لفوزه ونجاته وسعادته، وسوف يرىٰ بعد قراءته لكتابه أن حسناته كاملة لم ينقص منها شيءٌ حتىٰ لو كانت مقدار السلك الموجود في شق النواة.

[٧٢] يخبر جل وعلا أن من كان في هذه الدنيا الفانية أعمىٰ البصيرة عن الحجة والبرهان؛ فهو في الآخرة أشد عمًىٰ عن طريق الحق، وأضل طريقًا عن الهداية والرشاد؛ عقابًا له علىٰ عمىٰ بصيرته في الدنيا.

[٧٣] يخبر جل وعلا عن الكافرين أنهم قاربوا أن يخدعوا النبي ﷺ ويصرفوه عن ذم ألهتهم، وعن القرآن الذي أوحاه الله إليه؛ فطلبوا منه لكي يدخلوا في دينه أن يتمسح بآلهتهم ولا يذمها، وأن يكون القول والاعتبار لهم، فاعلم يانبي الله لو أنك حققت مطالبهم التي عرضوها عليك لأسلموا وأحبوك وصاروا أصدقاء لك، ولكن الله عصمك وحفظك من كيدهم.

[٧٤] واعلم يا نبي الله لولا أن الله عصمك من موافقتهم؛ لقاربت أن تميل إليهم ميلًا قليلًا بسبب كثرة خداعهم وحيلهم، ووعدهم لك أن يدخلوا في دينك، وحرصك علىٰ هدايتهم.

[٧٥] ثم اعلم يانبي الله لو أنك ملت إلىٰ هؤلاء المشركين ميلًا قليلًا لعذبناك في الدنيا وفي الآخرة عذابًا مضاعفًا؛ لكمال معرفتك بالحق المنزل عليك، وكمال نعمة الله عليك، ثم لن تجد أحدًا يحميك ويدفع عنك العذاب، وحاشاه ﷺ من ذلك كله.

وحيث إنه ﷺ معصوم فالوعيد والتهديد لأتباعه من الدعاة والعلماء الذين هم معرضون للإغراءات من الأعداء.

وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا
وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا
قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ
إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ
بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾
وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ
ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ
شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾
وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنََٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ
ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ
أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ
بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

[٧٦] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار قاربوا علىٰ إخراجك يانبي الله من بلدك مكة، وذلك بكثرة إيذائك، وأخبر أنه إذا تم ما أرادوا فإنهم لن يمكثوا بعد إخراجك إلا زمنًا قليلًا، ثم تحلُّ بهم العقوبة العاجلة كما حلَّت بغيرهم من الأمم السابقة، وقد تحقق ما قال الله فأخرجوه ﷺ من مكة، وصدق وعده فبعد سنتين تقريبًا قُتل الطغاة الذين اضطروه للخروج؛ حيث قتلوا وألقوا في قليب بدر.

[٧٧] واعلم يانبي الله أن سنة الله في من أُرسل قبلك من الرسل، هي نصر الرسل وإهلاك أقوامهم الذين أخرجوهم من بلادهم عقابًا لهم، وإنك لن تجد لسنة الله تغييرًا أو تبديلًا.

[٧٨] أمر جل وعلا نبيه ﷺ بإقامة الصلوات المكتوبات والمداومة عليها وهي: صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وأمره بإقامة صلاة الفجر وأن يطيل القراءة فيها؛ لأن صلاة الفجر تحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار. وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الآية أوجبت الصلاة وذكرت أوقاتها الخمسة؛ مع العلم أنها فرضت في السماء حينما عُرج بالنبي ﷺ.

[٧٩] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقوم من نومه ويقرأ القرآن في صلاة الليل، وفي هذا حثٌّ علىٰ التهجد، أي: الصلاة آخر الليل وقت تجلي الله لعباده لطلب رحمته ومغفرته، والتهجد يبدأ من بعد صلاة العشاء إلىٰ قبل صلاة الفجر، ثم أخبر سبحانه أنه سوف يبعث نبيه محمدًا ﷺ شافعًا للناس يوم القيامة؛ فيشفع للعامة من أهل المحشر، وفي هذا ردٌّ علىٰ المعتزلة الذين قالوا: لا شفاعة كليًّا.

[٨٠] وقل يانبي الله داعيًا ربك ومتضرعًا إليه: يارب اجعل كل مداخلي ومخارجي وجميع تحركاتي في طاعتك ورضاك، واجعل لي حجة ظاهرة بينة تنصرني بها علىٰ من خالفني، وتكون قوة تعينني بها علىٰ إقامة دينك وشرعك.

وقد أُمر ﷺ بهذا القول حين أُذن له بالهجرة فخرج من مكة مخلصًا لله لنصرة دينه ودخل المدينة كذلك وقد أيده الله بنصره وبالأنصار.

[٨١] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الضالين: لقد جاء الإسلام الذي بعثني به الله، ووعدني بظهوره وانتشاره، وزال الشرك واندحر واضمحل، واعلموا أن الباطل لا بقاء له ولا ثبات علىٰ الدوام.

[٨٢] واعلم يارسول الله أننا ننزل عليك من آيات القرآن ما هو شفاء لمَا في الصدور من أمراض الشَّك والشبهات والأوهام، وما هو شفاء للأبدان من الأسقام والآلام برقيتها بآيات القرآن، وكما أنه شفاء للأمراض فهو أيضًا سبب لفوز المؤمنين برحمة الله لمَا فيه من زيادة الإيمان والحكمة والفقه في دين الله، ثم أخبر جل وعلا أن هذا القرآن لا يزيد الكفار عند سماعه إلا كفرًا وضلالًا وبعدًا بسبب كفرهم وجحودهم وعدم الإيمان به.

[٨٣] يخبر وجل وعلا أنه إذا أنعم علىٰ الإنسان بالصحة والعافية والمال وغير ذلك؛ أعرض وتولىٰ عن عبادة ربه وطاعته وشكره، أما إذا أصابه فقر أو مرض أو شدة تجده ييأس ويقنط من رحمة الله تعالىٰ ولطفه ومعونته، وهذا ينطبق علىٰ الكفار غالبًا، أما المؤمنون فأكثرهم يعترف بفضل الله، ويلتجئ إلىٰ الله في السراء والضراء.

[٨٤] وقل يا رسول الله لعامة الناس: كل فرد منكم يعمل بالطريقة التي تناسبه والتي تعوَّد العمل عليها في الهداية والضلالة، فإن الله يعلم من هو أهدىٰ طريقًا إلىٰ الحق، ويعلم من يشكر ومن يعرض عن الشكر، ويجازي سبحانه كلًّا بعمله؛ فمن أحسن فله الحسنىٰ، ومن أساء فسيعاقب بقدر إساءته.

[٨٥] ويسألك يا نبي الله اليهود والمشركون عن حقيقة الروح، فقل لهم: اعلموا أن هذه الروح لا يعلم حقيقتها وذاتها إلا الله وحده، وأنها مما استأثر الله بعلمه، واعلموا أنكم ما أوتيتم من العلم إلا شيئًا قليلًا، فإن أسرار الله وعلومه جمة وكثيرة ولم يُطْلِعْ عباده منها إلا علىٰ النزر اليسير، والروح هي التي بها تُحرك الكتلة البدنية المكونة من لحم وعظم في حياة الإنسان؛ وكل ما عرف عنها: أنها إذا سرت في جسد الجنين فإنه يحيا ويُعَدُّ إنسانًا، وإذا خرجت منه فإنه يموت.

[٨٦] واعلم يانبي الله أن الله قادر - إذا شاء - علىٰ محو القرآن الذي أوحاه إليك من قلبك، ومحوه من الصحف التي كتب فيها، وقدرته جل وعلا لا يعجزها شيء، ثم لا تجد من يمنعه سبحانه من فعل ذلك، ولا تجد من يتكفل لك بإعادته إلا هو جل في علاه إن شاء ذلك.

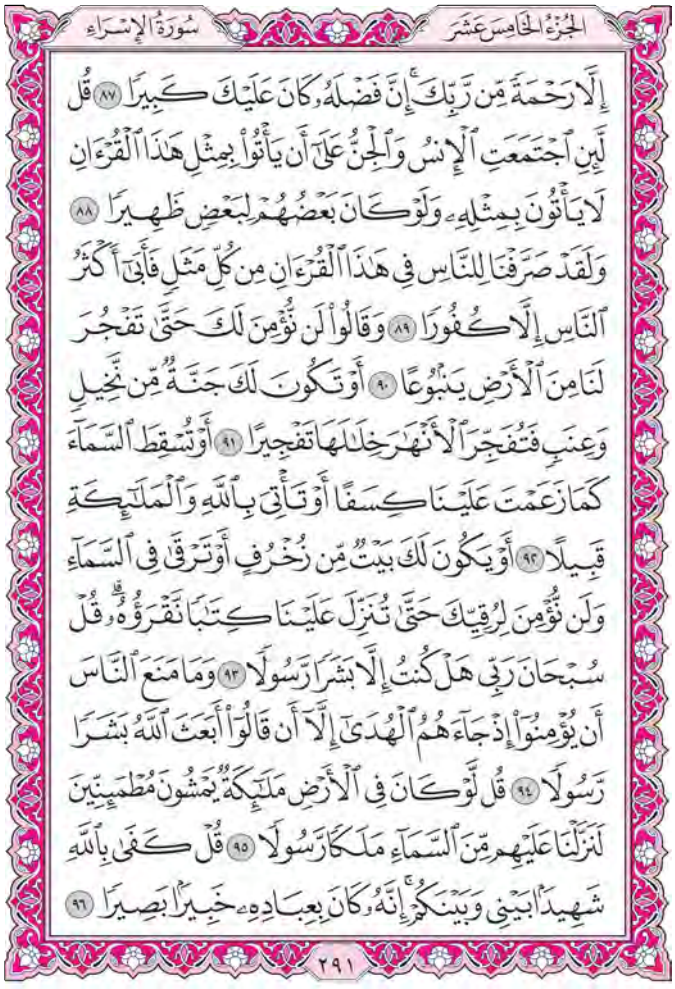

[٨٧] واعلم يا نبي الله لو شاء الله أن يمحو القرآن من صدرك لمحاه، ولكن رحمة بك أبقاه عز وجل في صدرك، إن فضل الله كان عليك عظيمًا، فقد أنزل عليك القرآن العظيم، وأعطاك المقام المحمود يوم القيامة، وجعلك سيد ولد آدم وغيرها من الفضائل.

[٨٨] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين: لو اجتمعت الإنس والجن واتفقوا علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن في إعجازه وبلاغته فإنهم لا يستطيعون ذلك، ولو تعاونوا وكان بعضهم لبعض نصيرًا؛ فكلام الخالق جل في علاه لا أحد يستطيع أن يحاكيه في إعجازه وبلاغته.

[٨٩] ثم أخبر جل وعلا أنه بين ونوع للناس في هذا القرآن من كل معنىٰ بديع ليعتبروا ويتعظوا به؛ ولكن أكثر الناس امتنعوا عن الاستجابة لهديه سبحانه وتعالىٰ، وجحدوا آياته وإرشاداته وأنكروها.

[٩٠] ويستمر المشركون في الاستهزاء بالرسول ﷺ وتعجيزه، ومن ذلك أنهم قالوا: يامحمد لن نصدِّقك ولن نتبع ما جئت به حتىٰ تُخرج لنا من أرض مكة عينًا نشرب منها لا ينقطع ماؤها أبدًا.

[٩١] ومن ذلك أيضًا أنهم قالوا: أو تكون لك حديقة فيها أنواع النخيل والأشجار والثمار وتجعل الأنهار تجري في وسطها بغزارة وكثرة.

[٩٢] وقالوا أيضًا: أو تُسقط السماء علينا قطعًا كما زعمت، أو تأتي لنا بالله وبالملائكة جميعًا فنراهم أمامنا بأم أعيننا؛ فيشهدون بصدق ما جئت به.

[٩٣] واستمروا في تعجيزه ﷺ فقالوا: أو يكون لك بيتٌ مبنيٌ من الذهب، أو تصعد إلىٰ السماء بسلم، ولن نُصدّقك في صعودك حتىٰ ترجع لنا ومعك كتاب من عند الله مكتوب فيه أنك رسول الله حقًّا، وأن الله يأمرنا فيه أن نصدّقك ونتّبعك، وبعد هذه المطالب التعجيزية أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار متعجبًا: سبحان ربي!! هل أنا إلّا عبد من عباد الله؛ وأن مهمتي هي إبلاغ ما أرسلت به؟ فكيف أقدر علىٰ الإتيان بمثل هذه المعجزات التي لا يقدر عليها إلّا الله وحده!.

[٩٤] ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الكفار ما منعهم من الإيمان بالله ورسوله ﷺ وطاعتهما حين جاءتهم رسلهم بالحق الواضح البيِّن؛ إلا إنكارهم أن يكون الرسول بشرًا، واعتقدوا أن الله لا يبعث إليهم إلا ملكًا من الملائكة لكي تبلغهم رسالة ربهم.

[٩٥] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الجاهلين: لو كان سكان الأرض ملائكة يمشون علىٰ أقدامهم ومستقرين فيها؛ لأنزل الله عليكم من السماء رسولًا ملكًا من جنسكم، وحيث إن أهل الأرض بشر فكان الواجب أن يبعث فيكم رسولًا من جنسكم حتىٰ تتمكنوا من مخاطبته وتفهموا كلامه.

وهذا يعني أن الرسول إذا كان من جنس آخر فإنه لن يكون قدوة أو أسوة.

[٩٦] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين الجاهلين: إني أشهد الله أنني بلغتكم رسالة ربي، وكفىٰ به شهيدًا بيني وبينكم يوم القيامة، فهو سبحانه يعلم أني قد بلغتكم الرسالة، ونصحت لكم، إنه جل وعلا خبير بأحوال عباده، وبصير بأعمالهم، لا يخفىٰ عليه شيء في السماء ولا في الأرض، وسيجازيهم عليها إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا
وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ ۖ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

[٩٧] يخبر جل وعلا أن الهداية بيده لا يملكها أحد سواه؛ فمن اختار الهدىٰ زاده الله هدىً، ومن اختار الضلال من بعد ما تبين له الهدىٰ فإن الله يضله، أي: يبقيه علىٰ ضلاله ثم لا يجد له وليًّا ولا نصيرًا ينصره من دون الله، قال تعالىٰ: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ﴾[الأعراف:١٨٦]، أي: أن من يُصرّ علىٰ الكفر وقد دُعي إلىٰ الهدىٰ فإن الله يطبع علىٰ قلبه ويضله إضلالًا جزائيًّا وليس ابتدائيًّا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[يونس:٤٤]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[النساء:٤٠]. واعلموا أن هؤلاء المكذّبين الضالين من الكفار سوف يبعثهم الله يوم القيامة، ويحشرهم علىٰ وجوههم، وهم لا يرون ولا يتكلمون ولا يسمعون، ثم تكون جهنم مقرهم ودار خلودهم، كلما خمدت نارها وتهيأت للانطفاء؛ زادهم الله نارًا تلتهب عليهم.

[٩٨] واعلموا أن هذا العذاب الشديد الذي سنعاقب به هؤلاء المشركين هو بسبب كفرهم بالله وجحودهم لآياته وتكذيبهم لرسله الذين دعوهم إلىٰ عبادته، وإنكارهم للبعث؛ حيث كانوا يقولون استنكارًا وسخرية: أإذا صرنا عظامًا بالية، وصارت أجسادنا مفتتة كالتراب؛ فهل بعد ذلك نعود للحياة ونبعث خلقًا جديدًا.

[٩٩] هل غفل هؤلاء المشركون فلم يبصروا أن الله الذي خلق هذه السماوات والأرض وما فيهن من عجائب خلقه؛ قادر علىٰ بعثهم وإعادة خلقهم وأمثالهم من جديد؟، وقد حدد جل وعلا موعدًا لموتهم وبعثهم وعذابهم لا شك في وقوعه، ومع كل هذه البراهين والدلائل ووضوح الحق إلا أنهم أصروا علىٰ الكفر والجحود لدين الله وآياته.

[١٠٠] وقل يا نبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التقريع والتبكيت: لو كنتم تملكون خزائن الأرزاق لأمسكتم شحًّا وبخلًا مخافة أن تنفد فيصيبكم الفقر بعد ذلك، لأن من طبع الإنسان البخل علىٰ النفس وعلىٰ الغير إلا من رحم الله.

[١٠١] واعلم يانبي الله أن الله آتىٰ موسىٰ عليه السلام تسع آيات بينات وهي: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وهن أكبر وأعظم مما طلب كفار مكة فلم يؤمن بها فرعون وقومه؛ واسأل المؤمنين من بني إسرائيل كعبدالله بن سلام عن ذلك، فستجد الجواب في قول فرعون لموسىٰ: إني لأظنك ياموسىٰ مسحورًا، قد اختلط عقلك واختل بسبب السحر، فصرت تتصرف وتدعي دعاوىٰ عجيبة وغريبة. وهذا شأن الطغاة في كل زمان ومكان، عند ما يرون الحق قد أخذ يحاصرهم، ويكشف عن ضلالهم وكذبهم، فإنهم يرمون أهله -زورًا وبهتانًا- بكل نقيصة؛ كالسحر والجنون والجهل والغباء ونحو ذلك.

[١٠٢] فأجاب موسىٰ عليه السلام: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هذه الآيات إلا ربُّ السماوات والأرض، وقد جعلها علامات واضحات علىٰ أني رسول من رب العالمين، وعلىٰ تفرده جل وعلا وحده بالعبادة، ثم قال له: وإني لأظنك يا فرعون هالكًا وضائعًا ومغلوبًا وملعونًا.

وقد قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل:١٤].

[١٠٣] وبعد أن هدد موسىٰ فرعون ووبخه أراد فرعون أن يزعج موسىٰ ويهجم عليه ومن معه من بني إسرائيل؛ فتبعهم بعد أن خرجوا من أرض مصر؛ فكانت النتيجة أن أهلك الله فرعون وجنوده جميعًا بأن أغرقهم في البحر عقابًا لهم علىٰ كفرهم وظلمهم وبغيهم.

[١٠٤] ثم قال جل وعلا لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده: اسكنوا الأرض شرقها وغربها، وليكن منكم في كل دولة مجموعة، فإذا جاء يوم الكرة الآخرة، أي: الإفساد الثاني في الموعد المحدد جئنا بكم وجمعناكم من كل مكان ومن كل دولة، وجعلنا تجمعكم في أرض فلسطين ليتحقق ما ذكر في أول هذه السورة عند إفسادكم الأول، وهو قوله تعالىٰ: ﴿لِيَسُـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾، وعلىٰ هذا فالذي يدمر هو العمائر والمباني الشاهقة أما المسجد الأقصىٰ فاليهود لم يعمرونه.

وقد مال المفسر الشعراوي إلىٰ هذا القول.

أما القول الثاني في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾، أي: إذا جاء يوم القيامة جاء بكم سبحانه وتعالىٰ جميعًا إلىٰ موقف الحساب ثم يحكم بينكم بحكمه العادل.

[١٠٥] واعلم يانبي الله أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله بالحق، أي: أن كل أخباره صدق وأحكامه عدل، ونزل مشتملًا علىٰ كل ما هو حق، ولم يقع فيه تبديل أو تغيير، ثم اعلم أيها الرسول أن الله ما أرسلك إلا مبشرًا من أطاع الله بالثواب، ومنذرًا من عصاه وكفر به بالعقاب.

[١٠٦] واعلم يانبي الله أيضًا أن هذا القرآن الذي بين يديك أنزله الله مفصلًا فيه الأوامر والنواهي، وفارقًا بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال، لكي تقرأه علىٰ الناس في تؤدة وتمهل لتستوعب معانيه، وأنزله الله عليك شيئًا فشيئًا علىٰ حسب الوقائع والأحوال وما تقتضيه الظروف والحكم.

[١٠٧] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين: سواء آمنتم بهذا القرآن أم لم تؤمنوا به؛ فإن نفع ذلك وضرره راجع عليكم، وإن العلماء الذين أوتوا علم الكتب المنزلة علىٰ الرسل قبل القرآن كعبد الله بن سلام، وعرفوا حقيقة الوحي إذا قرئ عليهم القرآن خشعوا وسجدوا لله علىٰ الأرض؛ لأنهم علموا أنه من عند الله.

[١٠٨] ثم قال سبحانه: وهؤلاء الذين أوتوا علم الكتب السابقة إذا سمعوا القرآن قالوا: ننزه ربنا ونبرئه مما وصفه به الجاهلون، وإن وعد الله بنصر المؤمنين في الدنيا، والبعث بعد الموت ومحاسبة الناس علىٰ أعمالهم واقع لا محالة.

[١٠٩] ثم كرر جل وعلا مدحه لهؤلاء فقال: ويقعون علىٰ وجوههم ساجدين لله باكين من تأثرهم بالقرآن، ويزيدهم سماع القرآن ومواعظه خشوعًا وخضوعًا لعظمة الله وقدرته.

[١١٠] وقل يانبي الله للمشركين الذين أنكروا عليك الدعاء بقولك: ياالله يارحمن، قل لهم: ادعوا الله أو ادعوا الرحمن فبأي واحد منهما دعوتم فإنكم تدعون ربًّا واحدًا، لأنهما اسمان لمسمىٰ واحد وهو الله، ولأن أسماء الله جامعة لكل المحاسن، ولا تجهر يامحمد بالقراءة في صلاتك فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن، ولا تُسِرَّ بها فلا يسمعك من يكون خلفك من أصحابك، وكن وسطًا بين الجهر والمخافتة.

[١١١] ختم جل وعلا السورة بأمر النبي ﷺ أن يقول: الحمد لله الذي له الكمال والثناء، والذي تنزّه عن الولد، ولم يكن له شريك يشاركه في الملك، ولم يتولَّ أحدًا من خلقه ليعاونه ويدفع عنه ضرًّا أو يجلب له نفعًا؛ فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلىٰ أحد من خلقه، وهم الفقراء المحتاجون إليه، وقد أنعم علينا بأن جعلنا نعبد ربًّا واحدًا؛ فله الحمد أولًا وآخرًا، وعظِّم يا نبي الله ربك تعظيمًا تامًّا بالثناء عليه وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين كله له. وهذه الآية تسمىٰ آية العز.

سورة الكهف

سورة الكهف مكيّة وآياتها عشر ومائة آية، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال**»[1]،

(١) أخرجه مسلم (٨٠٩).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق**»، وفي رواية: «**أضاء له من النور ما بين الجمعتين**»[2].

[١] بدأت السورة بالحمد والثناء والشكر لله الذي خصَّ برسالته عبده ونبيه محمدًا ﷺ الذي استوفىٰ مقام العبودية، وتفضل بأن أنزل عليه هذا الكتاب العظيم وهو القرآن، الذي ليس به ميل وانحراف عن الحق والعدل والصدق؛ بل جعله مستقيمًا في ألفاظه ومعانيه لا اعوجاج في شيء مما احتواه، وهو مهيمن علىٰ الكتب السماوية وحاوٍ لجميع ما فيها من المحاسن.

[٢] يخبر جل وعلا أنه جعل هذا القرآن مستقيمًا لا تعارض ولا اختلاف فيه أبدًا؛ بل هو محكم الآيات، وحاوٍ لمصالح الدنيا والآخرة، وأنه كتاب مستقيم معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، وقد أنزله الله لينذر العباد من عذابه الشديد يوم القيامة، ويبشر من آمن به وبرسله وكتبه ويعملون الأعمال الصالحة أن لهم أجرًا عظيمًا وثوابًا جزيلًا في جنات النعيم.

[٣] ثم بين سبحانه أن هذا الأجر العظيم والثواب الجزيل وهو الجنة، خالدين فيه أبد الآبدين، لا يزول عنهم ولا ينقضي أبدًا.

[٤] ثم أخبر جل وعلا أنه ينذر بهذا القرآن: اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارىٰ الذين قالوا: عيسىٰ ابن الله، وبعض مشركي العرب: الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٢٢٠)، والحاكم في المستدرك (٣٣٩٢)، وصححه الحاكم، والألباني في صحيح الجامع (٦٤٧٠).